Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Araştırmaları Merkezi
034526

كتاب معاني الحروف

تأليف

أبي الحسن علي بن عيسى الرماني النحوي
(٢٩٦ - ٣٨٤هـ)

حققه، وخرج شواهده، وعلق عليه، وقدم له
وترجم للرماني، وأرخ لعصره

الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي
أستاذ في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

دار الشروق جدة
للنشر والتوزيع والطباعة

الطبعة الثانية

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق جدة

للنشر والتوزيع والطباعة

جدة - المملكة العربية السعودية - تلفون ٦٤٢٦٦٦٠ - ص.ب ٤١٤٦ - ت ٨٤٢٨ - برقياً مشكاتنا

بسم الله الرحمن الرحيم

عصر علي بن عيسى الرماني

(٢٩٦ - ٣٨٤هـ)

١ - الحياة السياسية

ولد علي بن عيسى الرماني سنة ست وتسعين ومائتين للهجرة في السنة الثانية من خلافة المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) ثم نسأ الله في أجل الرماني ، وعاش حتى وافاه الأجل المحتوم سنة أربع وثمانين وثلثمائة . وإذن قد عاصر الرماني الدولة العباسية وهي تجود بأنفاس قوتها الأخيرة ، وقد أخذت الخلافة في الانحلال والضعف .

وقد أطلّت رءوس الفتنة منذ أن ثار بابك الخرّمي على المأمون(١) ، وكانت له انتصارات باهرة ، جعلت المأمون حين شعر بدنو أجله يستدعي أخاه المعتصم ، وأوصاه أن يضرب بشدة على البابكية ، وأن يسلك معهم خطة الصرامة والحزم .

ولكن المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) وقد رأى مناهضة الفرس ممثلين في « بابك الخرمي » وأتباعه — ولّى وجهه نحو عنصر آخر هو الأتراك ، فاستكثر من غلمانهم . وألف جيشاً قوياً منهم ، وزاحموا الناس في بغداد حتى ضاقت بهم ، فخرج إلى موضع سامرا فبناها (٢٢١ هـ) .

(١) تاريخ الأمم الاسلامية للأستاذ الخضري ص ١٩٦

وقد ثار الأتراك على الخليفة المتوكل (٢٣٣ – ٢٤٧ هـ) فهجموا عليه فى مجلسه فخبطوه بالسيوف ، وقتلوه وقتلوا وزيره الفتح بن خاقان معه[1] . وولوا ابنه المنتصر مكانه .

وحين هات المنتصر بن المتوكل اجتمع الأتراك وقالوا : « متى ولينا أحداً من ولد المتوكل طلبنا وأهلكنا . فاتفقوا على مبايعة المستعين (٢٤٨ — ٢٥٢ هـ) ، وقالوا : هو ابن مولانا المعتصم ، وهكذا أصبح الملك فى يد هؤلاء الأتراك ؛ هم الذين يولون ، وهم الذين يعزلون ، والخليفة فى يدهم كالأسير لا حول له ولا قوة ، حكى الفخرى قال :

« جلس المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) على سرير الخلافة فمد خواصه ، وأحضروا المنجمين ، وقالوا لهم : « انظروا كم يعيش ؟ وكم يبقى فى الخلافة ؟ » ، وكان بالمجلس بعض الظرفاء ، فقال : انا أعرفُ من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته ، فقالوا له : « فكم تقول إنه يعيش ؟ وكم سنة يملك ؟ قال : « مهما يرد الأتراك ! » .

وكان ذلك حقاً . فحين غضب الأتراك على المعتز ، وثاروا عليه وضربوه بالدبابيس ، وخرقوا قميصه ، ولطموه ، ثم حبسوه حتى مات بعد أن أشهدوا عليه أنه خلع نفسه .

وبرز فى الحياة السياسية حينئذ أمور .

[ا] منها ظهور القرامطة فى عهد المكتفى بالله (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) ، وكان من فتنتهم أن قطعوا الدروب على الحاج ، واقتلعوا الحجر الأسود ، وظل فى أيديهم عشرين عاماً[2]

[ب] ومنها ما حدث منذ عهد المقتدر (٢٩٥ هـ — ٣٢٠ هـ) من سيطرة الخدم من الروم والسودان ، فقد استكثر منهم المقتدر ، حتى بلغ عددهم فى داره أحد عشر ألف خادم ، فكان هؤلاء بجانب الخدم الأتراك ضغثاً على إبالة ، فاستولى هؤلاء

(١) الفخرى ٢٠٥ — ٢٠٦
(٢) انظر الكامل لابن الأثير ٧/٧٧ ، والفخرى : ٢١٥

وهؤلاء على الخلافة ، وسيطروا على الخلفاء الذين انغمسوا فى الملذات ، وشغلوا بها عن تدبير الملك ، فسقطت هيبتهم ، وضاعت منزلتهم !

* قتلوا الخليفة المقتدر ، ومثلوا به ، وقطعوا رأسه ، وتركوا جثته على قارعة الطريق حتى مر به رجل من الأكرة فستر عورته ، وحفر له فى موضعه ودفنه حتى عفا أثره[1] .

* وهجم الجند على القاهر (٣٢٠ — ٣٢٢ هـ) . وخلعوه ، وسملوه حتى سالت عيناه إلى خديه ، ثم حبس وأفرج عنه ، وبلغت به الحال أن وقف بجامع المنصور يطلب الصدقات . وفى أيام القاهر تبعت الدولة البويهية[2] التى عاش فى ظلها أبو على الفارسى .

* وحين ملك الراضى بالله (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) أسلم قياده إلى ابن رائق ، وسماه أمير الأمراء ، وكلفه تدبير المملكة ، فاستبد ابن رائق بالملك دون الراضى بالله ، ومن ذلك الحين خرجت الأمور من الخلافة العباسية ، واستولى الأعاصم وأرباب السيوف على الدولة ، ونافس ابن رائق على إمرة الأمراء كثير من القواد ، فكان من نتائج هذا التنافس وبال وحروب ، ولم تنته هذه الفترة التى أطلق عليها المؤرخون فترة « أمير الأمراء » إلا باستيلاء البويهيين على بغداد فضاعت البقية الباقية من سلطة الخلفاء ، فالمتقى بالله (٣٢٩ — ٣٣٣ هـ) تسمل عيناه ، ويخلع ، والمستكفى (٣٣٣ — ٣٣٤ هـ) يخلع ، وتنهب داره ، وتسمل عيناه أيضاً ، وهكذا يتتابع الخلفاء الضعفاء : المطيع لله (٣٣٥ — ٣٦٣ هـ) الذى خلع نفسه وترك الخلافة لولده ، والطائع (٣٦٣ — ٣٨١ هـ) ، والقادر (٣٨١ — ٤٢٢ هـ) فابنه القائم بأمر الله (٤٢٢ هـ) وفى عهده انقرضت دولة بنى بويه ، وظهرت دولة بنى سلجوق[3] .

ومنذ أوائل القرن الرابع الهجرى تساقطت الدولة العباسية كسفاً هنا وهناك ،

(١) انظر تجارب الأمم ٥/٢٣٧
(٢) الفخرى : ٢٣٠
(٣) الفخرى : ٢٥٤

فى أيام الراضى بالله (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) كانت فارس فى يد على بن بويه . والرى واصفهان والجبل فى يد أخيه الحسن بن بويه .

والموصل ، وديار بكر ، وديار ربيعة ، ومضر فى أيدى بنى حمدان (٣١٧ — ٣٩٤ هـ) .

ومصر والشام فى يد ابن طغج ، وخراسان والبلاد الشرقية فى يد نصر بن أحمد السامانى(١) .

والمغرب وافريقية فى يد أبى القاسم القائم بأمر الله بن المهدى العلوى(٢) .

والأندلس فى يد عبد الرحمن بن محمد الأموى .

وطبرستان وجرجان فى يد الديلم .

والبحرين واليمامة فى يد أبى طاهر القرمطى(٣) .

وهكذا تقلص ظل الدولة العباسية ، وضاعت هيبة الخلفاء ، والحكام ، فلم يأمنوا على أنفسهم وأموالهم ، وكثر الشغب من الجنود ، وتعددت الفتن ، واختل الأمن حتى تعطل الحج أكثر من مرة(٤) .

* * *

(١) الفخرى : ٢٤٧
(٢) الكامل لابن الأثير حوادث سنة ٣٢٤ هـ
(٣) المصدر السابق .
(٤) المنتظم : ٢٩٦/٦

٢ - الحياة الإجتماعية

وفى ذلك العصر اتسعت الهوة بين الطبقات ، فلم يكن هناك توازن فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية : ملوك وأمراء ووزراء ورؤساء أغنياء ، وإلى جانبهم جمهرة من عامة الشعب فقراء .

وشاع فى ذلك العصر مصادرة ذوى المال من الأغنياء ، فعمد هؤلاء إلى إخفاء أموالهم فى غير مظانها ، كالدفن فى الأرض ، والإخفاء فى شقوق السقوف . حتى حكوا أنه من حسن حظ أمير من آل بويه أن احتاج إلى مال كثير يصرفه على الجند وإلا شغبوا . فصادف أن رأى ثعباناً يختبىء فى السقف ، فأمر بالبحث عنه. فوجدت غرفة فوق السقف ، وفوقها دور آخر علوى . ووجدت هذه الغرفة مملوءة بالذهب المخزون فى الخفاء ففرج ذلك كربه ، وأزال شدته .

وعين أبو حسين الرقى قاضياً على حلب — فى عهد سيف الدولة — فكان يصادر التركات ويقول : « التركة لسيف الدولة . وليس لأبى الحسين إلا أخذ الجعالة ، وشاع بين الناس : « من هنك فلسيف الدولة ما ملك » .

* * *

وكان المجتمع فى ذلك العصر يموج بتيارات من المجانة والهدى ، والخلاعة والتقى ، وأهل الظرف بجانب أهل التوقر والتحرج .

وكان لكل موجة من الهوى والمجون مايقابلها من موجات الهدى والصلاح ، وقد ظهر فى ذلك العصر زهاد ونساك وصوفية ووعاظ ومتعبدة ، بل حنابلة متشددة ، يحدثنا أبو الفداء فى تاريخه عن حوادث سنه ٣٢٢ هـ أن « قد عظم أمر الحنابلة على الناس ، وصاروا يكبسون دور القواد والعامة ، فإن وجدوا نبيذاً أراقوه ، وإن وجدوا مغنية ضربوها ، وكسروا آلة الغناء . واعترضوا فى البيع والشراء ، وفى مشى الرجال مع الصبيان(١) .

ولهذا النص دلالته على اصطراع الخير والشر معاً فى مجتمع ذلك الحين .

(١) تاريخ أبى الفداء ٨٧/١

٣ - الحياة الثقافية

تناثرت الدولة العباسية فى هذه الإمارات والدويلات التى استقل بها الأمراء هنا وهناك فى مشارق العالم الإسلامى ومغاربه ، فتنازعت هذه الدويلات مجد العلم والأدب ، كما كانت تتنازع السلطان ، وإذا كان انقسام الدولة العباسية قد أدى إلى ضعفها سياسياً ، فإن ذلك كان وسيلة إلى ازدهار الحياة الثقافية فى ظل هذه الإمارات .

وقد آتت عناية الخلفاء فى العصر العباسى الأول بالحركة الفكرية — أكلها فى ذلك الحين ، وكانت عجلة التقدم العلمى لا تزال دائرة فى عصر الدويلات بحيث وصل المجتمع الإسلامى إلى مرحلة النتاج الأصيل من مراحل عمره العقلى ، هذا إلى ما كان للتنافس بين الأمراء من أثر على نهضة العلم والأدب ، وارتفاع بمنزلة العلماء والأدباء ، وقد رأى القائمون على أمر هذه الدويلات أن من مظاهر عظمتهم وسلطانهم التفاف الشعراء والكتاب والعلماء حولهم ، حتى رأينا من لا يحسن العربية يزين ملكه بهؤلاء من رءوس العلم والأدب فى زمانه .

استدعى يحكم التركى حاكم واسط ، وأمير بغداد والعراق أبا بكر محمد بن يحيى الصولى وكان مقرباً إليه ، وقال له : إن أصحاب الأخبار رفعوا إلىّ أنى لما طلبتك من المسجد وكان الصولى يقرأ درساً فيه — قال الناس : « أعجله الأمير ولم يتم مجلسنا. أفتراه يقرأ عليه شعراً أو نحواً أو يسمع من الحديث ؟ » يقولون ذلك تهكما بيحكم لأنه لا يحسن العربية — . ثم قال يحكم رداً على هذا : « أنا إنسان ، وإن كنت لا أحسن العلوم والآداب أحب ألا يكون فى الأرض أديب ولا عالم ولا رأس فى صناعة إلا كان فى جنبى ، وتحت اصطناعى ، وبين يدى لا يفارقنى »(١) .

فانظر كيف بلغت به رغبته فى اجتذاب العلماء مع ما فيه من عجمة لا تبين ، ولا يرجى معها فهم شعر أو نحو أو استماع إلى المحدثين ؟

---

(١) الأوراق : ١٩٥ ، وظهر الاسلام ١/٩٥

على أن من الأمراء — إلى جانب ذلك — من كان عالماً محباً للعلماء ، راغباً فى الاستفادة من علمهم ، وهذا عضد الدولة يناقش أبا على الفارسى مناقشة العالم ، ويستقل كتاب الإيضاح منه(١) ، وقد حكى الأستاذ براون فى كتابه « التاريخ الأدبى للفرس » أن السلطان محمود بن سبكتكين علم أن فى مجلس مأمون بن مأمون جماعة من رجال العلم والفلسفة منهم ابن سينا والبيرونى ، وأبو سهل المسيحى ، وأبو نصر العراق ، فكتب إليه أن أرسلهم ليشرفوا بمجلسى ، ونستفيد بعلمهم ، فجمعهم مأمون ابن مأمون ، وقرأ عليهم كتاب السلطان ، فأبى ابن سينا وفر وقبل الباقون »(٢) .

وربما كانت حاجة هؤلاء الملوك إلى أساطين البيان من الأسباب التى دفعتهم إلى اجتذابهم إلى ممالكهم ؛ إذ وجدوا فيهم سبيلا إلى إبلاغ الرغائب ، وإطفاء الفتن ، وتأديب العصاة المارقين ، واتخذوهم لساناً يتحدثون به ويتوعدون(٣)

وقد ظهرت طائفة الكفاة فى ذلك العصر ، وقد جمعت هذه الطائفة من البلاغة والسياسة ، « يحكمون بعدل ، وينطقون بفصل ، ويديرون المملكة ، ويسوسون الرعية ، فإن انضاف إلى ذلك أن يكون الواحد منهم فى بلاغته صاحب حظ ، وفصاحة لفظ ، وفى سياسته ذا تحيل ، وصحة فكر ، وثبات عزيمة ، فقد لبس — كما يقول الثعالبى — ثوب الفضل بعلمه ، وأخذ الجمل بطرفيه ، وصلح لتدبير الدولة والممالك(٤) .

وتعددت فى ذلك العصر العواصم الثقافية والعلمية ؛ فإلى جانب البصرة ، والكوفة ، وبغداد ، أصبحت شيراز ، والرى ، واصبهان ، ودينور ، وهمذان ، وبخارى ، ونيسابور ، وسمرقند ، وجرجان ، وحلب ، والقاهرة ، ومن هنا ما نراه من العلماء منسوباً إلى هذه البلاد وغيرها .

---

(١) شذرات الذهب ٣/٨٨

(٢) انظر ظهر الاسلام ١/٢٨٦

(٣) انظر نثر النظم وحل العقد للثعالبى : ٢

(٤) انظر ظهر ورقة ١٤ تحفة الوزراء للشيخ أبى منصور الثعالبى مخطوطة بنحو ش بدار الكتب المصرية .